عبد الناصر ومشروع الأمة

«مسألة ابن آدم - خليفة الله - والخليفة الحاكم»

المحامي الدكتور
برهان زريق
اللاذقية

هنالك فعاليات ونواهض لتفجير طاقات الامة واطلاقها في شعاب التقدم والازدهار، ويمكن القول ان العلاقة الدقيقة المتوازنة بين الامة والحاكم هي من اهم هذه التزوافع الحضارية والاولويات الدافعة.

هذه العلاقة - وهي علاقة برميل البارود بالشرارة المفجرة - تاخذ المظهرين الاتيين:

- ان يكون الحاكم مشروعاً خاصاً لذاته، وهنا يذيب الجماعة بمصلحته ويدمجها بشخصيته ويستحوذ عليها بنزواته.

- ان يكون جهازاً في خدمة فكرة على حد تعبير الفقيه الدستوري جورج بوردو، وفي هذه الحال نكون امام مشروع تاريخي عام تضعه الارادة العامة للشعب، ثم ياتي الحاكم لينفذ المشروع.

يقول جورج بوردو واصفاً الزعيم: «انني انحني اليه باكبار لانني اجد عبره مشروعاً يهمني كما يهمه ولكن يتجاوزني».

في الحال الاول، يقوم الحاكم بتفجير برميل البارود (الامة) عبثياً فتحترق الامة ويحترق هو نفسه، ويحترق كل شيء.. ما حول الامة وامامها ووراءها.

في الحال الثانية تتجيش الامة وتعبا في قنوات، منضبطة واضحة كالشمس، وعندئذ يشتعل برميل البارود - باولويات الاشتعال الطبيعية وقوانينه، فيضاء طريق الامة وما حوله وتضاء حياة الحاكم نفسه.

ما هو موقف قرائنا من علاقة الحاكم بالامة ؟؟ لا شك ان مشروعية الامة العليا - الخطاب الثقافي الاعظم (القرآن) لم يتكلم الا لماماً عن الحاكم (اطاعة اولي الامر) ولكنه تكلم باستفاضة عن الامة: «كنتم خير امة اخرجت للناس...» «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير.. الخ».

وتكلم باستضافة اعظم عن الانسان العادي (المؤمن) خليفة الله. «هذا القطب الذي يتعاقد مع الله في الميثاق الاعظم: واذا اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم..» الاعراف/ ١٧٢. وهو موضع تكريم الله: «ولقد كرمنا بني ادم». وموضع استخلافه لاعمار الارض وهو مستودع الامانة: انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال.. ويستمر التهميش والاستحواذ والاقصاء والمحاصرة لخليفة الله ابن ادم من قبل الخليفة الحاكم ويضيق الحبل حول العنق وتكثر الاغلال والقيود في الرؤوس حتى الاذقان وعلى القلب كالصخرة.. فاذا ابن ادم دمية في يد الخليفة الحاكم وعليه اطاعته الا في حالة واحدة، الا وهي اذا نهى عن الفرائض. وتكثر نعوت ابن آدم، فاذا هو الغوغاء والدهماء والعيارون والشطارون والصعاليك والعامة.

هكذا ينقلب التوازن وينتكس المشروع العام، فاذا الامة تذوب في شخص الحاكم واذا المشروع الخاص ستار يلف جلد الامة ويسد منافذها، ويحول دون تنفسها، واذا النهر الاعظم - على حد راي الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز - يشق منه جدول فجدول المشتق معاوية وعبد الملك، وغيره وغيره، ويؤول الامر الى هذا الخليفة، وقد يبس هذا النهر وجفت مياهه، وعلى الخليفة المذكور - الذي هو خليفة الله قبل ان يكون خليفة حاكم - ان يعيد النهر الاعظم الى مجراه.

وكما قال الشيخ العلامة محمد مهدي شمس الدين: «ان مشروع الدولة في الاسلام مشروع غير مقدس لانه مرفوض. ولكن المطلق المقدس والاساس الذي وضع له الشرع والشريعة هو الامة.

«فالمقابلة بين المقدس وغير المقدس هي المقابلة بين الامة والدولة بالشان التنظيمي العام للمجتمع، فالامة هي مقدس، والدولة هي مؤسسة ذات وظيفة من مؤسسات الامة، وليست المؤسسة الوحيدة للامة. وقد تاتي حالات تكون فيها الدولة هي الدرجة الثانية من مؤسسات الامة، وليست من الدرجة الاولى، وقد لا تكون من مؤسسات الامة وهذا ما تحدده درجة نجاح الدولة في اداء وظائفها المكلفة بها للمجتمع الذي تقوم فيه من جهة وللامة من جهة اخرى».

ويتابع الشيخ شمس الدين قوله: «لقد فشلت الدولة في كل شيء حتى في حفظ النظام.. اذ ان شعارها اما نحن او الفوضى.. اما ان نشترك معاً في اقرار النظام، في المشروع التاريخي، في المشروع السياسي العام، في المشروع السياسي العالمي في المشروع الحضاري، فلم تعد الامة تطلبه من الدولة، انما تمارسه بطريقتها الخاصة او لا تمارسه نتيجة لعجزها. اما المشروع الخاص الذي يتناول الحياة المادية اليومية للمواطن، فقد فشلت فيه الدولة ايضاً. ويشمل هذا الفشل في العصر الحديث: المشروع القومي - المشروع الوطني - المشروع التنموي - المشروع التحديثي».

ويقول «ان الصراع بين مشروع الدولة في الاستحواذ على الاسلام والظهور بمظهر الرعية وشرعية تسلطها على الامة، ومشروع الامة في ان تضع يدها على الدولة وتحولها الى طبيعتها الاساسية وكونها مؤسسة لها، وليست مؤسسة مفروضة عليها فلا يزال مفتوحاً».

وعلى هذا الاساس فان مصطلح حكام الجور وولاة الجور هو مصطلح مشترك بين جميع المذاهب الفقهية في الاسلام.

وحقيقة الامر اذا استثنينا مشروع الامة في حقبة صلاح الدين الايوبي (مشروع طرد الصليبيين) لا نجد بعد ذلك الا المشاريع الخاصة التي تدور حول ارادة الحاكم ونزواته ومصلحته. «الله سبحانه وتعالى يقف في الملا الاعلى ليخاطب الملائكة قائلاً: واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة.. بقية الاية.. البقرة.

هكذا يستشرف الاسلام ما يسمونها اللحظة الفلسفية التي تقوم - في ماهيتها وجوهرها على الانسنة. على العقل الانساني، عقل الانسان العادي.

واذا كان الامر هكذا في القرآن الكريم فهل ان الامر كذلك في التجربة التدشينية النبوية؟؟؟ كيف يكون الجواب الا بالايجاب والمشروع النبوي قرآن متحرك على ارض الواقع؟

حسبنا التاكيد ولفت الانتباه الى ميثاق الرسول قاصدين من ذلك الصحيفة المتضمنة ذلك التعاهد بين الرسول وامة المؤمنين المتضمنة: هذا كتاب من محمد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب.

هكذا يؤسس الرسول المشروع السياسي، ليس على سلطة لدنية مستمدة من السماء، وانما على الارادة العامة للامة - الوجدان الجمعي. وسار مشروع الامة في الحقبة الراشدية رخياً في بحران الامة. ولكن ما هو مصير مشروع الامة بعد الحقبة الراشدية؟؟؟

يلخص احد المفكرين المعاصرين هذا المشروع من خلال بنية الامة فيقول: ان مجتمع دولة الدعوة المحمدية زمن الخلفاء الراشدين كان يتالف من مرتكزين فقط: كان الافراد والعلماء فريقاً والجند والرعية فريقاً اخر، وعندما قامت دولة السياسة مع معاوية اصبح الامراء فريقاً والعلماء فريقاً اخر (في القمة) واصبح الجند فريقاً والرعية فريقاً اخر (في القاعدة).

ويتطور الوضع خلال العصر الاموي في اتجاه قيام انقسام عمودي لهرم المجتمع يجعل من الامراء والجند فريقاً (المجتمع السياسي) ومن العلماء والرعية (المجتمع المدني) فريقاً اخر.

هكذا وجدنا الخليفة الحاكم معاوية بن ابي سفيان يدعي لنفسه الحق والحرية في التصرف بمال المسلمين بالمنع والمنح. يقول المذكور: الارض لله، وانا خليفة الله، فما احدث فلي وما تركته للناس فهو لفضل مني. وعلى هذا الاساس انتفض ابن ادم خليفة الله ابو ذر الغفاري ليقول: كلا ان هذا المال هو مال الناس. وعلى هذا الاساس ينبري الخليفة الحاكم ابو جعفر المنصور - ومعه الكثير من الخلفاء - ليقول: انما انا سلطان الله في ارضه.

اما في تاريخنا المعاصر، فلا نعتقد ان هنالك مشروعا عاما للامة الا مشروع التفاف الجماهير حول عبد الناصر، فهذا الالتفاف هو الذي يفسر الانجازات الضخمة التي تحققت على يديه وما كان للزعيم الراحل او لغيره ان يحقق هذه الانجازات، الا بكثافة حضور الامة.

ولعلنا نجد مصداقا لهذه النظرة في الشهادة الثمينة للامام شمس الدين بقوله «استخدمت الامة دولتها في بعض الحالات، ولكنه كان انجازها والذي كان سيئاً غالبا هو انجاز دولتها.. المع فترة في العصر الحديث كانت فترة المرحوم عبد الناصر».

وعلى هذا الاساس اذا اردنا ان نفسر ما هو مشروع عبد الناصر، اذا كنا نقول انه مشروع عام، بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى وما تحمل من دلالات.

وبمعنى اوضح يمكننا ان نسلم مع هذا الشخص او ذاك بوجود بعض الاخطاء في هذا المشروع، لان ذلك يتفق مع نسبية الحقائق الانسانية، ولكننا نرفض - ومعنا - الجماهير الساحقة - ان تتهم هذا المشروع بخصوصيته وعدم صدقه.

ويمكننا الذهاب مع الفضل شلق للقول «بان الايديولوجية القومية لم تؤد الى قيام الدولة العربية الواحدة بل ثبتت للاقطار وجودها وحولتها الى كيانات تؤيد نفسها».

لم يكن ذلك نتيجة مؤامرة وحسب، بل حسدت ذلك لان تلك الايديولوجيا القومية كانت على تناقض مع تراث الامة وتاريخها، وقد فهمت الجماهير العربية ذلك وكانت تتعاطف مع عبد الناصر صاحب فكرة الدوائر الثلاث (العربية والافريقية والاسلامية) اكثر بكثير مما كانت تتعاطف مع الحركات القومية.

ان العرب يرون في الوحدة مثلا اعلى ويرون في الفتنة والتجزئة الشر الاكبر. لذلك كان تعبير الاجماع في الفقه اساساً من الاسس الاربعة، والجماعة في الدين والسياسة لا يستقيم اي منهما بدون الاجماع».

ان اهمية مسالة الوحدة ومغزاها الكوني بالنسبة للعرب هي التي تفسر علاقة عبد الناصر بالجماهير العربية.

كانت انطلاقة عبد الناصر الكبرى بنظر العرب في مؤتمر باندونغ تعبيراً عن الخروج من المحلي الى الكوني، بعدها غفر العرب لعبد الناصر هزائمه، غفروا له لان خروجه من المحلي الى الكوني جعلهم يشعرون مرة اخرى بمعنى لوجودهم وبمغزى له».

لقد ادركت الجماهير العربية ان سلطة عبد الناصر جهاز من اجهزة الامة، وان علاقته بالجماهير لم تكن علاقة استحواذ واستتباع وحذر وعداء، انما علاقة فداء وتضحية».

وبصورة عامة يمكن ان نسجل على تلك العلاقة ما يلي:

● ابتدات هذه العلاقة بالترقب والاكتشاف واستقرت في تاميم القناة وحرب السويس ثم اخذت تتدعم على هذه القاعدة الرصينة لتتحول الى يقين.

● تميزت هذه الحقبة بصمود جماهيري ساحق وحضور كثيف عريض في صنع الحدث وتوجيهه ودعمه وتفعيله، الامر الذي يمكن تاكيده ان الجماهير اصبحت ركنا اساسيا من اركان الحياة السياسية في المنطقة.

● كانت الجماهير تقوم بمبادرتها وفاعليتها الذاتية المستقلة. يحكى ان عبد الناصر كان يتفاوض مع احد الوزراء البريطانيين فاذا بالمفاوض يتلقى برقية من سفير بريطانيا في البحرين بقيام مظاهرات ضد بريطانيا. انفجر المفاوض قائلا لعبد الناصر: هكذا اعطيت الاوامر بتلك المظاهرة؟ ويبتسم القائد بينه وبين نفسه، ابتسامة دهشة وثقة وسرور مصدرها عدم علاقته بذلك.

● لقد انت حرب حزيران على كل شيء، ولكن الجماهير العربية ابت الهزيمة واصرت على الاستمرار بقيادة عبد الناصر. وهكذا كانت الانتفاضة بعد الاستقالة تجديدا للبيعة، للعقد الاجتماعي مع القائد.

● استطاعت هذه الجماهير ان تضع اسس الحياة السياسية للامة في مؤتمر الخرطوم من خلال اللاءات الثلاث مفوتة الفرصة على الرجعية العربية.

● استطاعت الجماهير ان تجدد روح الثورة وشبابها بانتفاضة الطلاب والعمال في مصر حيث تتوج ذلك بصدور بيان الثلاثين من اذار تاكيدا لهذه الوشيجة الصلبة بين القائد والجماهير وفهما وادراكا لهذه الجدلية الفاعلة.

● تبقى كلمة اخيرة جديرة بالتنويه، هي ان هذا الالتفاف حول عبد الناصر لم يكن امرا طارئا او حدثا عارضا، بل هو حقيقة موضوعية وقانون تاريخي عميق وبوح وترجمة تلجا اليه الجماهير اثناء المنعطفات الحادة، وهذه هي ظاهرة شخصنة السلطة (الكارزما). حيث القائد كالتلفاز يعكس آمال الجماهير.

واذا كانت القيادة الفذة تظهر في التحولات التاريخية الكبرى، فليس امام الجماهير العربية سوى الثقة بالذات وثورة الذات والتعويل على الذات ودعم الذات، في مشروع عربي نهضوي كبير، يمثل زحفا ضخما تحقق من خلاله لورتها الثقافية وخيارها الحضاري من خلال فاعلية الديمقراطية وحرية المواطن والمحورية الاخلاقية والشرارة الالهية وتحقيق العدالة للجماهير العربية.

سس ليلة في تاريخ الامة المعاصر